

محاضرة: 01

مفهوم الأسطورة

تمهيد:

إذا رجع الإنسان بمخيلته إلى بدايات الزمن الغامضة وجد أنه إذا لم تتر الديانة الحقيقية ذهن الإنسان ، ولم تفسر له العلوم الأشياء و نشأتها فإنه قد يلاحظ مولد ما نسميه بالأساطير. فقد سأل الإنسان نفسه : " من أين تأتي الشمس، وما هي هذه الشمس؟ " و أجاب على هذا السؤال بقوله: " الشمس قارب (أو عربة) يجلس فيه الإله المتألق المبهر، ويقوده عبر السماء."ولما حيرَه القمر ، فسّر الإنسان الأول ذلك المضيء بالتفكير فيه كقارب آخر تجلس فيه شقيقة إله الشمس. وتساءل الإنسان : " ماذا يكمن وراء رعب الرعد و البرق ؟ "ولكي يحل غوامض هذا اللغز، وصل إلى صورة إله عظيم يجلس على عرش في السماء، وصوته هو الرعد، ورسوله هو البرق، فإذا ما هاج البحر في عواصف مدمرة ، فذلك سببه غضب إله الأمواج ذي الشعر الأزرق.

حير كثير من الأسئلة الأخرى سكان الأرض البدائيين : أصل النار، و الشكل الذي جاء به مختلف أنواع الحيوان و النباتات، و أسباب رفاهية بعض الناس، وشقاء البعض الآخر، و طبيعة الموت، ومسألة العالم الآخر. ولكي يجيب قدامى الناس، في تلك العصور، على هذه الأسئلة كوّنوا الأساطير.

1- مفهوم الأسطورة:

تتعدّد تعريفات الأسطورة وتتباين وفقاً لتعدد منطلقات الدرس الأسطوري ووسائله وتداوله في مختلف العلوم الإنسانية، أي صلته بما يسمى بـ (الحضور الكلّي)، أو

بالدراسات البينيّة التي تعني تردّد موضوع واحد بين أكثر من حقل معرفي. ومن اللافت للنظر أنّ ثمة تبايناً أحياناً بين تلك التعريفات، يمتد ليشمل الباحث الواحد أحياناً أيضاً، وغالباً ما يكون لكلّ تعريف دوره الوظيفي، بحيث يطوّعه هذا الباحث أو ذاك لصالح الموضوع الأسطوري الذي يتناوله.

والأسطورة لغةً من " الفعل سَطَرَ، وهي : كل ما يُسَطَّر أو يُكْتَب، والجمع أساطير، وفي المعاجم الأساطير : الأباطيل والأكاذيب، والأحاديث لا ناظملها أو ما لا وجود له. ومنه قوله تعالى: " إنّ هذا إلاّ أساطير الأولين" المؤمنون: الآية 86. و الأساطير هي ديانات الآخرين، وهي في المقام الأول ما يراه المرء لا معقولاً في ديانات الآخرين. أمّا ما يقبله المؤمن من قصص أوردتها كتابه المقدس أو تناقلها أتباع دينه، فهي عنده تاريخ ثابت لا شكّ فيه، حتى لو وصفها أتباع الديانات الأخرى بأنّها من الأساطير)".

فالأسطورة في مفهومها الحديث مصطلح جامع ذو دلالات خاصة، يُطلق على أنواع من القصص أو الحكايا المجهولة المنشأ، ولها علاقة بالتراث أو بالدين أو بالأحداث التاريخية، وتُعد من المسلمات من غير محاولة إثبات. وهي قصص عامة أو خاصة تُروى عن الآلهة أو عن كائنات بشرية متفوّقة أو عن حوادث خارقة وخارجة عن المألوف في أزمنة غابرة، وقد تتحدث عن تجارب متخيّلة للإنسان المعاصر بغض النظر عن إمكان حدوثها أو تسويغها بالبراهين. وقد تحكي الأسطورة تاريخاً مقدساً.

وقد اعتبرها مولر (k.o. Muller) أحاديث مصورة لأحداث تاريخية حقيقية واقعية، وتابعه في ذلك مع بعض الاختلافات الجزئية كل من جاكسون (jachson) و أولدنبيرج (Olden berg) وهم يتبعون المنهج الذي اعتبر الأسطورة قصة أبطال حقيقيين قاموا بأعمال مجيدة فخلّدهم أخلافهم، وحوّلوهم من بشر إلى آلهة. في حين ذهب ماكس مولر (Max Muller) إلى أن الأسطورة صورة من صور الفكر تحدّدت بوساطة اللغة.

أما أكثر المدارس أثرا فهي مدرسة إ. ب. تايلور (E. B. Taylor) أحد أعلام مؤسسي المدرسة الأنثروبولوجية، التي هاجمت المدرسة اللغوية، وذهبت إلى منهج يجمع الأساطير المتشابهة في مجموعات للحصول على علم حقيقي للأساطير. مع مقارنة تلك المجموعات بعضها ببعض. مع رد الإعتبار كاملا للمادة الأسطورة ذاتها، لأنها الأكثر جدارة بالبحث من اللغة التي تقولت فيها.

و أدلت مدارس علم النفس أيضا بدلوها، واعتبرت بطل الأسطورة حالما يخضع لتحوّلات سحرية و يقوم بالخوارق، وكلّها ليست سوى انعكاس لرغبات و أمان مكبوتة تنطلق بعيدا عن رقابة الوعي و أكد إريك فروم (Erich Fromm) أن الاسطورة تشرح بلغة رمزية حشدا من الأفكار الدينية و الفلسفية و الأخلاقية، وما علينا إلا أن نفهم مفرداته لينفتح لنا عالم مليء بالمعارف الثرية. كذلك تبع يونغ (jung) أستاذه فرويد (Freud) في رأيه أنّ الاسطورة نتاج اللاشعور، لكنّه اختلف عنه في قوله أنها نتاج لاشعوري جمعي، عاشت في لا شعور الجماعة و انتعشت من خلال الفرد. وتُفسّر أكثر الأساطير على أنّها من فعل قوى خارقة يُلمح إليها تلميحاّ دون ذكرها صراحة، وهي تنسب الوقائع إلى أمور تخرج عن مألوف العالم الطبيعي، ولكنّها تستند إليه في إطار متكامل يجمع بين الحقائق والأمر الخارقة، فتبدو مُتّسقة تمام الاتساق.